افلام تفتتح العام الجديد.... «البحث عن السعادة» و «بابل» و «آخر ملوك اسكتلندا»:

قرية عالمية تفتقد التواصل.. وفيلم خيالي عن عيدي امين بأداء مثير .. وويل سميث يبحث عن المال

ابراهيم درويش*

■ بدأ الموسم السينمائي في بريطانيا بقوة هذا العام بسلسلة من الافلام التي تركت اثرها على الجانب الاخر من الاطلنطي وظهرت في عدد من المهرجانات الدولية، والعديد منها مثير في موضوعاته واداء ابطاله، وما دام موسم الجوائز قد افتتح من خلال الاعلان الاسبوع الماضي عن الفائزين بجوائز «الغلوب» الامريكية التي تقدم للفيلم والتلفزيون، فالجوائز عادة ما تقدم صورة عن جوائز الاوسكار في شهر آذار (مارس) القادم، فمارتن سكورسيزي، المخرج المخضرم قد يحظى في النهاية بجائزة عن فيلم «الراحلون» الذي عاد فيه لموضوعه المحبب، افلام العصابات في قلب المدن الامريكية، والفساد في داخل قوى الشرطة الامريكية، وما اثار انتباهي من الافلام الجديدة، فيلم ويل سميث «في البحث عن السعادة» عن كفاح رجل اسود، من الطبقة المتوسطة يعمل جاهدا لتأمين حياة جيدة له ولابنه بعد ان تركته زوجته وهربت بحثا عن حياة افضل في نيويورك، والفيلم يحكي قصة حقيقية لحياة رجل اسود دخل سوق الاموال وحقق ثروة كبيرة واسمه كريس غاردنر، الفيلم هو عن الحلم الامريكي، مع ان هذا مات بعد احداث ايلول (سبتمبر) ولكن الحلم الامريكي للاسود في امريكا يختلف عن حلم الامريكي الابيض، فمن بائع اجهزة طبية الى عامل في اكبر مركز مالي. وتدور احداث الفيلم في عام 1981 حيث كان كريس مندوب مبيعات في سان فرانسيسكو، وتتركه زوجته ليندا «ثاندي نيوتن» مع ولده كريستوفر. والفيلم يتبع مراحل في حياة كريس وكفاحه من اجل تحسين وضعه المالي والانساني، ومراحل البحث عن فرصة التي يجدها كتاجر في السوق المالي، وعندها يكون بمقدور كريس ان يعيش مثل الناس بدلا من النوم في حمام قطار الانفاق بعد ان طرده صاحب «الموتيل» او يقاتل من اجل النوم في كنيسة محتشدة بالمشردين.. وفي الفيلم صورة انسانية عن كفاح ابناء الطبقات المتوسطة، وويل سميث في الفيلم هادىء ويبدو ناضجا، ساخراً ولكن من وضعه وليس لاضحاك الناس. ويلعب الفيلم على خطأ املائي على باب دار حضانة تديرها صينية حيث تم الخطأ بكتابة كلمة «سعادة» في عبارة مأخوذة عن اعلان توماس جيفرسون الدستور الامريكي.

الفيلم الاخر الذي اثار انتباهي هو فيلم «بابل» من اخراج المكسيكي اليخاندرو غونزاليس اناريتو، وهو فيلم مثير من ناحية طموحه لبناء قصة متعددة الطبقات، ومتعددة الجغرافيا، ومتعدد اللغات (عربي، ياباني، مكسكي وانجليزي)، وكما يشي الاسم فهو عن الاتصال والتواصل وعن اسطورة بابل، التي تحكي قصة صعود الناس في برج بابل من اجل البحث عن لسان واحد وفي الطريق الى السماء يختلفون وتختلف السنتهم، واناريتو ذكي في محاولته لبناء قصة في داخلها مفاجآت واحداث غير متوقعة حيث تشي تحركات الابطال والممثلين بان حس العادية والاعتيادية مخادع وهناك قابلية للمفاجأة، لا يكشف اناريتو عن نوايا ابطاله وتواريخهم حيث تنقلنا كاميراته بين اربعة مواقع مختلفة ثقافيا ومتوزعة جغرافيا، في جنوب المغرب راع يعيش في قرية معزولة يشتري بندقية قديمة، انكليزية الصنع من نوع وينشستر، للصيد كي يحملها ابناء الصيان لحراسة الاغنام، وأحد ابني الراعي شقي وشرير وهو الاصغر، روحه الشريرة تقوده الى التلصص على اخته التي تستجيب له من خلال الكشف عن بعض محاسنها. الابن الاكبر طيب ومطيع، يكتشف افعال شقيقه ويطلب منه ان يرعوي، التفاصيل هنا لا تهم، المهم هو ان الشقي الصغير قناص جيد، وفي الجبل بعد ذهاب الاب الى المدينة يتراهن الاخوان على مدى البندقية ـ فالراعي حسن ابراهيم قال ان مداها 7 اميال او اكثر، في اللحظة التي يصوب فيها الاخ الصغير البندقية على حافلة سياح في طريقها للواحات الجنوبية، نعرف ان شيئا حدث لكننا لا نتبين طبيعته، براد بيت (ريتشارد) وكيت بلانشيت «سوزان» زوجان امريكيان من كاليفورنيا في رحلة للصحراء لحل مشاكلهما الزوجية، يتركان ولديهما في عهدة حاضنة مكسيكية ايميليا (ادريانا برازا) تريد الذهاب للمكسيك ليوم واحد لكي تحضر حفل زفاف ابنتها، مكالمة من المغرب تقول لها ان عليها ان تبقى مع الولدين وعاطفة الام تدفعها للمغامرة واخذ الولدين معها مع أنها لم تجد ايا من الخادمات المكسيكيات راغبة في رعاية الولدين، وبمساعدة ابن شقيقتها (غاييل غارسيا بيرنال) الذي لعب دور تشي غيفارا في فيلم «مذكرات دراجة» تقرر اخذ الولدين الى الحفل الذي يستمر للصباح، عند نقطة العبور مرة اخرى الى امريكا يحدث ما لا يتوقع حيث يطلب رجل شرطة اوراقا تثبت ان الخادمة لديها صلاحية من اجل اخذ الولدين الى المكسيك وبمعرفة الوالدين.

بعيدا عن المكسيك، تنقلنا كاميرا اناريتو الى اليابان، فتاة تعاني من الصمم في سن المراهقة تشيكو (رينيكو كيكوتشي) تعيش مع والدها رجل الاعمال وتبحث مع صديقاتها عن شباب وحب وعلاقة وحشية، لكن قدرتها على التواصل مع الشبان تتوقف عندما يكتشفون انها لا تسمع، لم تنجح كل محاولتها لجذب الشبان، بل محاولتها مع طبيب الاسنان واخيرا في نهاية الفيلم مع محقق الشرطة، الفتاة تعاني من ازمة مراهقة، وتعيش ذكرى امها التي ماتت منتحرة. يلعب اناريتو على فكرة المفاجأة والتصرفات التي تقودنا الى نتائج غير متوقعة. فرصاصة الولد تصيب رقبة السائحة الامريكية ويتحول الامر الى قصة دولية عن الحرب على الارهاب، هنا تحضر الشرطة المغربية وتقوم بعمليات قمع بين سكان القرية بحثا عن المجرم، والخارجية الامريكية تتدخل، والسائحة الامريكية تنزف بدون عناية طبية حيث تنقل الى قرية احد المرشدين مع السياح وتتلقى علاجا تقليديا يوقف نزيفها لحين، كاميرا المخرج وهي تنقل الفقر والحياة المتواضعة للريفيين الا انها لا تتردد في نقل طيبة السكان وعاديتهم، وفي النهاية تتحدى فكرة ان كل عربي قابل للشراء، الشرطة المغربية تبدو قاسية في بحثها عن الارهابي، الارهابي ليس الا سائحاً يابانياً كان يحضر للمغرب للصيد ودليله حسن ابراهيم، نفسه الذي باع البندقية الى الراعي، ولان السائح الياباني كان في رحلة اخيرة له للمغرب، وبسبب طيبة المغربي الدليل فقد اعطاه اياها هدية، رجل الاعمال لم يكن الا والد الفتاة الصماء في اليابان. في المكسيك تقود احداث المواجهة مع الشرطة الى مغامرة في الطريق تؤدي لتدخل حرس الحدود وطرد الخادمة، نهايات الفيلم، مقتل الاخ الاكبر واعتراف الاخ الشرير في المغرب انه قام باطلاق النار على الحافلة، المواجهة الغرائبية بين محقق الشرطة والفتاة الصماء، واخيرا نقل السائحة بطائرة الى الرباط او الدار البيضاء تجمع شتات القصة التي ارادت القول انه على الرغم من التقدم التكنولوجي الكبير وفكرة العولمة لا زال الناس يجدون صعوبة في التواصل مع بعضهم البعض، لكن القصة ليست كلها عن التواصل، فهي عن القدر والشرط الانساني المترابط، رصاصة بندقية صيد تربط حيوات اشخاص لا يعرفون بعضهم البعض في قدرية مثيرة، ليس في مكان واحد ولكن في امكنة وقارات مختلفة. رسالة الفيلم في النهاية ان الناس لا يستطيعون التواصل، وقد نتكلم لغات مختلفة ونعيش في ثقافات متنوعة الا ان الشرط الانساني هو نفسه. على الرغم من طموح الفيلم، الا انه رحلة في مشاهد عالمية، وقد يبدو الجزء المغربي هو الاضعف حيث لم يشهد حياة الا بحضور كيت بلانشيت وبراد بيت، والحافلة السياحة التي احيت المشاهد المغربية. على العموم فقوة الفيلم ليس فيما يريد قوله ولكن توقع ما سيحدث بعد، غارسيا بيرنال، ليس في تصرفاته ما يثير الاهمية، فهو يضحك ويشرب كثيرا في العرس المكسيكي ولكن له جانباً اخر متوحشاً عندما يطلق النار في الهواء، ويمسك ديكا من رقبته ويدوره ويقطع رأسه، وعندما يشعر بالارتباك على الحدود مع امريكا، حيث يبدو في موضع الاتهام والمساءلة مما يقود الى المغامرة والضياع في الصحراء. قد تكون رسالة الفيلم ان العنف او البندقية ليس الحل للعالم ولكنه طموح وصادق، وهو مختلف عن افلام اخرى للمكسيكي اناريتو «21 غراما»، وفيلمه الاخر «اموريس بيروس».

«اخر ملوك اسكتلندا»

«بابل»

ويل سميث

آخر ملوك اسكتلندا

في المشهد الاخير من فيلم «آخر ملوك اسكتلندا» الذي قدم فيه الممثل الامريكي الاسود فوريست ويتكر احسن أدواره عن الرئيس اليوغندي عيدي امين دادا (1924 ـ 2003)، يقول الطبيب الاسكتلندي نيكولاس غاريغان (جيمس ماكاوفي) للطبيب اليوغندي متسائلا عن السبب الذي يدفعه لانقاذه ومساعدته للهروب من جحيم يوغندا في عهد امين، فيقول الطبيب الاسود، اذهب واحك قصتنا للعالم، لان الناس سيصدقونك، اما انا فسأواجه مصيري. العبارة تشي ان الفيلم على الرغم من اداء ويتكر المثير هو عن الرجل الابيض تماما كما كان فيلم "صرخة الحرية" عن المناضل في جنوب افريقيا ستيف بيكو ـ وعليه فالفيلم الذي يأخذنا في رحلة لاوغندا السبعينات بعد وصول عيدي امين للسلطة هي حكاية عن يوغندا التي شاهدها الطبيب الاسكتلندي الدكتور غاريغان، وما خلف هذه الذكريات لا نعرف شيئا عن عيدي امين الذي توفي في منفاه في العربية السعودية عام 2003، فسنوات حكم امين (1971ـ 1979) التي صنعت من الرئيس السابق رمزا للشر والوحشية والقتل والاتهامات بانه قتل اكثر من 300 الف من ابناء بلده وقام باضطهاد القبائل وطرد الهنود «الاسيويين» من يوغندا بعد اتهامهم بأنهم يمصون دم البلاد ولا يشاركون في اقتصادها او بناء مؤسساتها، كل هذا قدم عبر رواية طبيب اسكتلندي حالم بفسحة عام وتطوع في مركز طبي بعيد قبل ان يبدأ حياته العملية في بلده، الطبيب تقوده الصدفة لكي يصبح الطبيب الخاص للزعيم اليوغندي، ففي اثناء مرور موكب الرئيس في طريق ريفي تدهم سيارته بقرة ويجرح في يده ويتم استدعاؤه لمكان الحادث حيث يعالج امين، وبعدها بفترة يتلقى رسالة من وزير الصحة تدعوه للحضور الى العاصمة كامبالا لكي يتولى عمله كطبيب خاص للرئيس. يقبل الطبيب الشاب المنصب ومن خلال علاقته اليومية مع امين يقدم لنا تصرفاته، التي تتمحور حول شخصية المهرج والقاتل السادي، فمن خلال تصرفات امين، ومقالبه، مفاجآته نعرف قصة امين الذي بدأ جنديا صغيرا في الفرقة الافريقية التي استخدمها الانكليز لقمع ثوار الماو الماو في كينيا، حيث جاء امين من قرية كوبوكو في اقليم غرب النيل في اوغندا، وعانى حياة قاسية قبل ان يجند في الجيش البريطاني ويعمل في قسم الخدمات في المطبخ والغسيل، في الوقت الذي تلقى فيه تدريبا عسكريا. اما الجانب الاخر فهو القمع والقتل الذي يمارسه الرئيس ضد معارضيه. شخصية عيدي امين في الفيلم ليست حقيقية انها من اختراع كاتب بريطاني هو جايلز فودين الذي اصدر روايته عام 1998، والصورة عن الزعيم اليوغندي الذي وضعته مجلة التايم على غلاف عددها تحت عنوان «عيدي امين رجل افريقيا البري (المشاكس)» وفي النهاية نعرف صورة امين كما يقدمها غاريغان، وهو ما اشارت اليه الرواية يقول غاريغان انه سيقوم بكتابة القصة بناء على يومياته التي كتبها اثناء اقامته وعمله القريب من امين. غاريغان سافر لافريقيا، بعد ان ادار نموذجا للكرة الارضية ووضع اصبعه على اول دولة يلمسها اصبعه، وتأتي يوغندا بعد محاولتين، حيث يسافر لعمل الخير والمتعة وارضاء حس المغامرة التي افتقدها في قريته الاسكتلندية البعيدة واثناء دراسته في جامعة ادنبرة.

حادث سيارة يتعرض له الرئيس عيدي امين يغير حياة الطبيب الذي كان يعمل في عيادة يديرها طبيب انكليزي وزوجته التي يحاول غاريغان اغراءها، لكنه يستبدلها لاحقا باحدى زوجات الرئيس التي تقع بحبه وتقتل شر قتلة بعد اكتشاف الرئيس العلاقة. الفيلم يلعب على فكرة البطل الساذج الذي يتمسك ببراءته في زمن القسوة والرهاب والتصرفات اللامنطقية التي يقوم بها امين. ويحافظ الطبيب على هدوئه او طيبته في وجه المزاج المتقلب للرئيس، ويرفض الاستماع الى ما يقوله المسؤولون في السفارة البريطانية، والذين يحاولون تجنيده للتجسس، فالمسؤول في السفارة يبرر في اول لقاء له محاولته تجنيد الطبيب بانه يريد معلومات وقصصاً كي يملأ بها تقاريره اليومية التي يرسلها يوميا للندن. يلعب الفيلم الذي اخرجه كيفن ماكدونالد على فكرة ان البريطانيين شجعوا وصول امين او عملوا من اجل وصوله بعد ان خيب ميلتون اوبوتي الذي صار ماويا آمالهم، الكثير مما قيل وكتب عن امين سواء من الذين عايشوا فترته او المسؤولين العاملين في شرق افريقيا هو مزيج يخلط بين الحقيقة والخيال. وسواء اكان الفيلم يقدم حقيقة ما حدث في عهد امين ام لا فهو تنويع على فكرة الوحشية والبربرية التي ارتبطت بأمين، فمن يرى في امين ديكتاتورا اكل لحوم اعدائه يرون في الفيلم الجديد عنه خيالا يخفي الحقيقة، والذين يربطون بين امين المنفي الذي عاش حياة عادية في العشرين عاما التي تلت رحيله عن كامبلا، يرون في الفيلم لعباً جديداً على فكرة الشر والتشويه ضد امين، فهناك في يوغندا يرون مبالغة في التأكيد على فكرة الشر والوحشية عند امين. ينتهي الفيلم عندما يختطف «اخواننا الفلسطينيون» طائرة اسرائيلية لمطار عنتيبي، ويوافق عيدي امين على اطلاق سراح الرهائن غير الامريكيين والابقاء على الاسرائيليين، في جلبة التفاوض يكون لدى امين الوقت ليعذب طبيبه الخاص ويغرز الحديد في جلده ويتركه وحيدا، ليواصل التفاوض، في اللحظة التي يتم فيها نقل الرهائن الى الطائرة يخرج الدكتور غاريغان من غرفة التعذيب ويغوص مع الحشد وينجح في صعود الطائرة تاركا وراءه الديكتاتور امين وحيدا. حيث يقول الفيلم ان امين خسر معركة الرأي العام العالمي بعد عملية عنتيبي. فيلم ماكدونالد جيد، وهو قريب من اصل الرواية الا ان قراءة الرواية، كعمل ادبي وخيالي افضل لانها تقدم صورة عن الشروط والوضع داخل يوغندا وتضارب المصالح ولعبة الامم في افريقيا في ذلك الوقت. فيلم جميل واداء جيد لويتكر ولكنه بعيد عن عالم امين وعالم يوغندا التي حاول تقديمها انها رؤية رجل «ابيض/ مونزنغو» عن افريقيا وعيدي امين، الضعيف الخائف الذي يتمسك بطبيبه باعتباره من اقرب المقربين له، وعيدي امين السفاح الذي يختفي المعارضون في عهده وتنتشر الجثث في الاحياء والشوارع. يذكر ان رواية فودين كانت اولى رواياته وصدرت عن دار فابر اند فابر في لندن عام 1998.

---

*ناقد من اسرة «القدس العربي»

الافلام:

THe Pursuit of Happyness
(Dir): Gabriele Muccino
Babel
(Dir): Alejandro Gonzalez Innaritu
The Last King of Scotland
(Dir):Kevin Macdonald

تداعيات

مخلوقات فلسطينيّة من النوع الثالث

فاروق وادي*

■ لم تكفّ الأسود التي تزأر في الفضائيات، هنا وهناك، عن زئيرها، من غزّة إلى جنين، مُحرِّضة الدم على الدم، وحجارة الصوان على مزيد من الاحتكاك، والريح على إذكاء النيران الجهنميّة التي لا تُبقي ولا تَذر.

الأصوات المفتونة بزئيرها، لم تلتفت في معظمها، للأسف، إلى أدنى أصول الخطاب المخالف، أو ما يمكن أن نُطلق عليه "أخلاقيات الاختلاف"، حتّى أن أحدها لم يتردد في وصف الرئيس محمود عبّاس، بـ"رئيس سلُطة أوسلو"، وكأن القائل ينتمي إلى قوّة جذريّة صعدت إلى سدّة الحُكم فعملت فوراً على إلغاء اتفاقيات أوسلو (سيئة السمعة والصيت)!

أمّا نحن، الذين لا ننتمي إلى جماعة من تلك الأسوُد التي هنا، أو هناك، فلا أدري إن كان سوء الطالع، أو حُسنه، هو الذي قاد أمثالنا إلى ما يُعرف في الساحة الفلسطينيّة بـ"المستقلين"، الذين لا ينتمون إلى أحد الفصائل، ويمارسون قناعاتهم السياسيّة بمعزل عنها، والذين أصبحنا، في هذا الزمن الصّعب، مخلوقات من النوع الثالث!

ربما يكون من حُسن طالعنا، نحن هذه المخلوقات البعيدة عن طينة الأسود، أننا نستطيع الادعاء بقدرتنا على أن ننأى بأنفسنا، في هذا الليل الذي تشتد حلُكته، عن زجّ أرواحنا في حروب الأخوة الأعداء، أو حتّى معاركهم الكلاميّة التي تؤجج الدم ونيران الكراهية في العروق (وإن كان رصاصهم الطائش لا يستثني أحداً من موت محتّم)، وأننا رغم العمى، نبقى قادرين على رؤية المستويات المتدرّجة بين الأبيض والأسود، أو ما حولهما من ألوان. أمّا سوء طالعنا، فيكمن في أن خطابنا النقدي لأي طرف من الأطراف يبقى قابلاً للتأويل، ولن نكون في منأى عن وضعنا عنوة في إحدى زوايا الانحياز، في زمن أصبح فيه الفرز واضحاً، على قاعدة جورج بوش التي تحتمل صياغّة أكثر دقّة: إن لم تكن معي في حروبي الظالمة بالكامل، فإنك ضدي بالكامل!

بناء على ذلك، فقد أصبح أي نقد لحركة فتح يُعتبر تقرباً من حركة وحكومة حماس، أما نقد الحكومة، أو الخط السياسي لحماس، فأضحى انحيازاً فاضحاً إلى حركة فتح (إن لم يكن دفاعاً عن الفساد وسلطة أوسلو "سيئة السمعة والصيت".. ورئيسها محمود عبّاس!).

في هذا الوضع الدقيق، لم يعد الخطاب المُستقل مستقلاً تماماً، أو إن أحداً لا يقتنع به كخطاب مُستقل، مهما حاول التجرُّد والموضوعيّة. فهو لا يستطيع التحرُّر من الرؤية النقديّة لجهات تريده أن يسم الآخر بالشر المُطلق مقابل وسمها بالخير المُطلق.

ومما لا شك فيه، أن خطابنا، نحن المخلوقات من النوع الثالث، يشهد انزياحات ظاهرة أو خفيّة، قد تميل به إلى هنا أو هناك. وربما لا يستطيع المَرء رؤية درجة هذا الانزياح في خطابه، لكنه يستطيع رؤية ذلك في خطاب آخر، لخلوق آخر ينتمي إلى النوع نفسه.

***

مثل هذه التداعيات راودتني وأنا أقرأ رسالة الصديق المناضل عبد الجواد صالح، الصريحة والشجاعة، التي وجهها إلى الرئيس محمود عبّاس، وزودني بنسخة منها عبر البريد الإلكتروني. وهي تنتمي إلى ذلك النوع من الخطاب العقلاني الحريص، الذي يتيح لك مساحة من الاتفاق أو الاختلاف في الرؤية والتفاصيل، ويُحرِّض على الحوار والتفكير والعمل من أجل تطوير الأفكار التي جاءت بها في سبيل الخروج، معاً وسوياً، من المأزق الذي يلف الجميع.

ومع الاحترام الشديد للنوايا والتوجهات الوطنيّة الصادقة التي عبّرت عنها الرسالة، فلا أخفي أنني كنت ألمس، في تفاصيلها، ذلك الانزياح المتفلّت من الموضوعيّة، وإن كان لا يرتقي إلى درجة الإنحياز المُطلق لطرف من الأطراف على حساب الطرف الآخر، مع عدم نفي إمكانية أن يكّون قد أصابني الأمر نفسه، في كتاباتي الأخيرة حول الموضوع الوطني وتحولات السنة الأخيرة.

وإذا كنت سأبتعد قليلاً الآن عن مناقشة الأفكار والقضايا التي جاءت في الرسالة، فإنني آمل من الصديق "أبو صالح"، أن يبُادر إلى توجيه رسالة أخرى للسيد رئيس الوزراء، تقرأ بموضوعيّة أداء حماس في السلطة، وإنجازاتها، وإخفاقاتها، خلال نحو عام من الحُكم، وتقديم الرأي والمشورة السياسيّة والقانونيّة والإداريّة من رجل يحظى بالاحترام، عجنته التجربة السياسيّة الفلسطينيّة وعجنها.

***

الأمر لا يحتاج إلى ثلاث سنوات أخرى من الحصار والجوع وانعدام الأمن، لنعمل على تقويم هذه التّجربة بأيد بيضاء من غير سوء، وبألسنتنا، وأقلامنا. مع الانتباه إلى أن الفّساد يُمكن أن يتجلّى بشكلٍ آخر جديد، وغير معهود، أقلّه شيوع ظاهرة إطعام كلّ نوعٍ لنوعه، مع إبقاء أطفال النوع الثالث جوعى، وعراة من الفرح.. وملابس العيد!

أخشى أن أشرح وأستفيض، فأجد من يتهمني بالانحياز. فالمثقف ورجل السياسة، ليسا دائماً في منأى عن ذلك.

---

*كاتب من فلسطين
wadi49@hotmail.com

«رحلة ربيعة» للمخرج السوري ميّار الرومي: عندما تنسجُ الأفعال الصغيرة حدثا كبيرا

باريس ـ «القدس العربي»

ـ من صلاح سرميني:

في فيلمه القصير (رحلة ربيعة)، يتخيّر مخرجه السوريّ ـ المُقيم في باريس ـ ميّار الرومي قرية سورية قريبة من نهر الفرات، تُسمى (تل البنات)، ويبدأ بمونتاج متواز يُظهر للمتفرج فتاة شابة تحضّر نفسها للخروج، وفي بيت آخر ليس بعيداً عن المدرسة، معلمٌ شاب يرتدي ملابسه أيضاً، ويصعد إلى سطح البيت الطينيّ ليُجري مكالمةً هاتفيةً مع أمه، يخبرها بأنه سوف يأتي لزيارة عائلته بصحبة خطيبته.

منذ الركوب في السيارة المُستأجرة، تنسجُ الأفعال الصغيرة، والخلافات البسيطة، والحوارات المُقتضبة، والرغبات الدفينة،.. حدثاً كبيراً يتجسّد في 22 دقيقة. ومنذ البداية، يعتمد ميّار الرومي ـ وهو المُصور أيضاً ـ لقطات ثابتة، متأنية، تتوافق مع الأجواء الصباحية الهادئة، والمُسترخية في القرية. وتتناوب أحجام لقطاته ما بين (العامّة) لكلّ ما يحدث خارج السيارة، و(المُتوسطة) لكلّ ما يجري في داخلها.

تتهادى السيارة على الطريق، المعلم الشاب مستعجلٌ للوصول، والسائق يتمهل أكثر فأكثر للاستمتاع بحلاوة خطيبته، والمتفرج يتابع بفضول تلقائيةً مدهشةً لأداء ممثلين غير محترفين.

في السيارة، ينفتح سيناريو الفيلم على تفاصيل بسيطة، يُجازف (ميار) بتسليط الأضواء عليها، وتكبيرها، وهو يعرف جيداً أنّ المتفرج الكسول قد تعوّد منذ زمن على أحداث مشوّقة تجعله مشدوداً نحو الشاشة، مُستلباً إن صحّ التعبير، متقمصاً إحدى الشخصيات، متعاطفاً، أو نافراً من هذه، أو تلك، ليخرج أخيراً من صالة العرض متطهراً.

ولكن، ما هو (مفاجئٌ) في هذا الفيلم، خلوّه من (المفاجآت) النمطية، واقترابه من واقع الناس العاديينّ، ورصده لأفعالهم المُتداولة، وسلوكهم الإنساني الطبيعي، وإعادة صياغة تراجيديا حياتهم اليومية:

ـ يستمع السائق إلى أغنية ما، والمعلم الشاب يطلب منه بأن يخفض الصوت.

ـ الريح تلامس خدود الشابة الجميلة.

ـ يحكي السائق طرفةً، لا يضحك منها لا المعلم، ولا خطيبته.

ـ لا يخفي السائق إعجابه بالفتاة، ويختلس النّظر إليها من وقت إلى آخر.

ـ يرغب السائق في توصيل شخص ما في الطريق، فيرفض الشاب.

ـ تداعب الفتاة خصلات شعرها بأنوثة.

يتوقف السائق لحظات في محطة بنزين، وفي غياب الشاب قليلاً، ينتهز الفرصة ليقدّم نفسه للفتاة، اسمه (منذر)، وهي (ربيعة).

خلال الرحلة، يتخلى (ميّار) عن أيّ موسيقى، ما عدا تلك التي يسمعها السائق من المذياع، وتشترك معها نشرة الأخبار بقطع الصمت المُسيطر داخل السيارة التي تصل مدينة (حلب)، و(ربيعة) مبتهجةً، لأنها تستمتع (ربما) برحلتها الأولى بعيداً عن دارها في (تل البنات).

يفضل (ميّار) هنا بأن يستعرض بانورامياً أحد شوارع وسط المدينة (باب الفرج)، ومن ثمّ قلعتها الشهيرة، بدلاً من اللاذقية الأقرب إلى (كسب)، نهاية الرحلة. يمكن اعتبار أكثر التفاصيل أهميةً في الفيلم، تلك التي كان بإمكانها تحويل مساره إلى دراما غير متوقعة، أو كوميديا فاقعة، وهي تحرك عجلات السيارة بعد أن تركها السائق بدون شدّ الفرامل، وذهب ليتبولّ بعيداً عن الأنظار.

وفي إحدى الاستراحات المُنتشرة على طول طرق المدن السورية، كان بإمكان (ميّار) التمهل قليلاً كي تنتعش (ربيعة) بالطبيعة التي لا تعرفها في قريتها الصحراوية. لقد تعمّد بأن لا يصنع أيّ حدث هامّ تتوقف عنده، ونتجادل في تفاصيله، وأيضاً، بأن لا نعرف أيّ شيء عن الشخصيات الثلاثة، غير ما يمكن أن نتوقعه بأنفسنا، فنشارك في نسج أحداث في مخيلتنا. وتنتهي الرحلة بالوصول إلى منزل العائلة، وتلخصّ لقطة عامة اللقاء مع الأب، بينما يستلم السائق (منذر) أجرته، ويرحل مُتحسّراً.

(رحلة ربيعة) فيلم طريق بامتياز، يتشارك في نسج تفاصيله الصغيرة ثلاث شخصيات هامشية، وسيارة أجرة، وطريقاً طويلاً.

ولم تضعف قلّة الإمكانيات الإنتاجية، والتقنية قدرته على التعبير، كاميرا واحدة موضوعة في الكرسي الخلفي للسيارة، تتناوب في تصوير المعلم الشاب والسائق، لنراهما الأول يميناً، والثاني شمالاً، والطريق في المُنتصف تبتلعه الصورة، ومرةً تصوّر (ربيعة) من الجانب، فيزيد ضوء النهار خدودها نعومةً، ووجهها صفاءً، وما بينهما لقطات بانورامية للطريق، وفي لحظات التوقف، تخرج الكاميرا من داخل السيارة (المكان المُغلق)، لتتنفس قليلاً، وتتابع الشخصيات من بعيد، بدون أن تلاحقهم.

المُتتبع لسيرة (ميّار الرومي) السينمائية، سوف يلاحظ بحثاً دؤوباً عن أسلوبية خاصة، وشغفاً دائماً بتحقيقها:

ـ إيقاع بطيء، تأمليّ، يصل إلى حدود الشعر.

ـ اهتمام كبير بحركة الكاميرا، وزواياها.

ـ صياغةٌ إبداعيةٌ لشريط الصوت، وتوظيف مرهف لمُستوياته التعبيرية.

ـ رصدٌ معمّق للتفاصيل الصغيرة، وتوظيفها درامياً.

ـ الابتعاد كثيراً عن الصيغ الريبورتاجية، والاختيارات النمطية في تسجيل الواقع.

ـ تأكيد كتابة سينمائية، شخصية، متفرّدة. وعلى الرغم من الصبغة الروائية لـ(رحلة ربيعة)، يسيطر علينا الاعتقاد بأن الفيلم تجسيدٌ إبداعيّ مركز لرحلة حقيقية، أو حدثٌ واقعي رصدته الكاميرا تسجيلياً.

كما نجزم بأن السينما الفرنسية، ومن ثمّ العربية (السورية) سوف تكسب (ميار الرومي) مخرجاً قادراً على الترحال من التسجيلي إلى الروائي، وبالعكس، أو مزجهما معاً، وفي أعماله القادمة، سوف يفوح مذاقٌ مضمونيّ، وتشكيليّ خاص.

رحلة ربيعة

إخراج، تصوير، وصوت (ميار الرومي)، 22 دقيقة، إنتاج عام 2006 سورية/فرنسا.

تمثيل: جافرا يونس، معن جمعة، أسامة حلال.

* وُلد (ميار الرومي) في دمشق عام 1973، درس التصوير في كلية الفنون الجميلة، ثم حصل على شهادة الدراسات السينمائية، والسمعية/البصرية من جامعة باريس 8، ودبلوم من (المدرسة الوطنية العليا لمهن الصورة والصوت Fe-mis) عام 2001 (قسم التصوير).

عمل مدير تصوير، ومصوراً لأفلام روائية، وتسجيلية.

أفلامه التسجيلية: سينما صامتة، بانتظار النهار، نادي المستقبل.

لقطة من فيلم «رحلة ربيعة» (القدس العربي)